قال – رحمه الله –: **[٨٢ – عن أنس بن سيرين قال: استقبلنا أنساً حين قدم من الشام فلقيناه بعين التمر، فرأيته يصلي على حمارٍ ووجهه من ذا الجانب – يعني: عن يسار القبلة، فقلت: رأيتك تصلي لغير القبلة؟ فقال: لولا أني رأيت رسول الله ﷺ يفعله ما فعلته]**.

ذكر المصنف –رحمه الله– هذا الحديث الشريف والذي يدل على هدي النبي –ﷺ– في الصلاة على الدابة في السفر مع عدم استقبال القبلة نفسها، ومناسبته لباب استقبال القبلة واضحة وهو يدل على نفس المسألة التي دل عليها حديث عبدالله بن عمر –رضي الله عنه وأرضاه– .

وقوله : **[استقبلناه بعين التمر]** هذه الجملة فيها دليل على ما كان عليه التابعون من حب أصحاب النبي –ﷺ– وتوقيرهم وتقديرهم وإجلالهم ولا يعرف الفضل إلا أهله، فالهدي الكامل أنه إذا قدم إلى المدينة أو قدم إلى البلدة إنسان يُعرف بالعلم وبالفضل فإن الأفضل والأكمل أن يكرم؛ لأن هذا من شيم المؤمنين قال ﷺ : ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)) وأكرم ضيف يحل على الناس في مدينتهم وبلدتهم وقراهم هم حملة كتاب الله وسنة رسوله –ﷺ– العلماء العاملون الأئمة المهتدون المهديون الذين هداهم الله وهدى بهم وجعلهم أئمة يهدون بأمره وأقامهم حجة على عباده فهؤلاء خليق بهم أن يقدروا وأن يجلوا فكان التابعون – رحمهم الله برحمته الواسعة– يحبون أصحاب النبي –ﷺ– ويكرمونهم ويجلونهم ولذلك ما تركوا أنساً يدخل إلى الكوفة حينما قدم عليهم رضي الله عنه وأرضاه وإنما خرجوا يتلقونه ويستقبلونه قبل دخوله إلى المدينة، وهذا صنيع أهل الفضل –كما ذكرنا– فإن إكرام أهل الفضل بالاستقبال قبل دخول المدينة أبلغ وأعظم قربة وطاعة لله –ﷻ–، وكان بعض العلماء يقول : إن الله اصطفى لنبيه خير صحب رضي الله عنهم وأرضاهم فكانوا خير من تعلم وخير من جلس بين يدي رسول الله –ﷺ– فشرفهم وكرمهم وفضلهم بكمال الأدب فكان حالهم في الأدب مع رسول الله –ﷺ– في التعلم منه وإجلاله وتوقيره صلوات الله وسلامه عليه على أكمل حال، ثم رزق الله الصحابة في التابعين ما قرت به عيونهم فكما كانوا بررة أوفياء مع رسول الأمة ﷺ قيض الله لهم رجالاً وأجيالاً صالحة من سلف هذه الأمة الصالح من التابعين فقدروا أصحاب رسول الله –ﷺ– وأجلوهم ورفعوا منازلهم وحفظوا كرامتهم رضي الله عنهم وأرضاهم، ورحم الله تابعي هذه الأمة فخرجوا يستقبلونه، والخروج لاستقبال العالم فيه دليل على تقدير علمه وتقدير منزلته وتقدير ما في قلبه من نور الكتاب والسنة، والخروج لاستقبال العالم فيه إشعار له بعظيم ما وهبه الله وكذلك فيه دليل على أن الناس تريد منه هذا الخير وأنها تقدر مجيئه إليهم، وهذا كله –كما ذكرناه– إنما هو فضل وكمال فضل يؤتيه الله من يشاء

من عباده، ونسأل الله العظيم من واسع فضله، فاستقبلوه بعين التمر وهو الموضع المعروف الذي كانت فيه الوقعة بين المسلمين والفرس في عهد أبي بكر –رضي الله عنه– في أوائل الفتح .

وقوله : **[فاستقبلناه بعين التمر، فلقيناه يصلي على حمارٍ ووجهه من ذا الجانب]** رضي الله عنه وأرضاه وجعل أعالي الفردوس مسكنه ومثواه، كان من خيار عباد الله وأصلحهم أنس بن مالك صاحب رسول الله –ﷺ– الذي صحبه عشر سنين يدخل على بيته ويرى خلوته ويقضي حاجته ويقوم على شأن النبي –ﷺ– في سفره وفي حضره ولما تنازعوا في تلبيته بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه ورجعوا إلى أنس وذكروا له أقوال غيره قال كلمته المشهورة : ما تعدوننا إلا صبيانا لقد كنت تحت ناقة النبي –ﷺ– يمسني لعابها أسمعه يقول : (لبيك حجة وعمرة) مائة ألف والسواد الأعظم وترى هذا الصبي الحدث صغير السن ومع ذلك تحت ناقة النبي –ﷺ– في حجة الوداع حتى لا تضيع عليه السنة، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين وعن أمة محمد –ﷺ– وعن السنة خير الجزاء .

فلما خرجوا يستقبلونه، انظروا إلى صلاحه وكماله وفضله فإنه في السفر وفي مشقة السفر وعناء السفر ومع ذلك لقوه وهو يصلي هذا يدل على فضل الصحابة وما كانوا عليه رضي الله عنهم وأرضاهم من العبادة والخير وعمارة أوقاتهم في طاعة الله –ﷻ– في السفر الذي أسقط الله فيه من الفريضة الركعتين إذا كانت رباعية وخفف فيه على عباده في الفريضة ومع ذلك كان يصلي أي يتنفل رضي الله عنه وأرضاه، وهذا يدل على فضلهم وحرصهم على الخير قال بعض السلف يحكي عن حال بعض أئمة التابعين يقول : خرجت معه من مكة إلى المدينة والله ما فتر لسانه عن تلاوة كتاب الله –ﷻ–، وكان الرجل منهم – من أصحاب النبي ﷺ – إذا دخل عليه إما أن يراه قائماً يصلي أو جالساً يذكر الله –جل وعلا– أو في شأن نفسه، ما كانت أوقاتهم تضيع عليهم سدىً أو هدراً، فمع السفر ومشقة السفر وهو يصلي، يصلي على حماره ودابته رضي الله عنه وأرضاه. وهذا هو حال السعداء الذين ذاقوا لذة العبادة وحلاوة المناجاة لله –ﷻ– فمن اطمأن قلبه بالله فإن الله يشرح صدره لكل خير حتى إن قلبه يستوحش إذا لم يكن في طاعة أو بر أو خصلة ترضي الله –ﷻ–، ونسأل الله من واسع فضله .

ولذلك من صحب أنس –رضي الله عنه وأرضاه– من التابعين تأثر بكثرة صلاة أنس، كان أنس –رضي الله عنه– كثير الصلاة كثير العبادة، وكان ثابت –رحمه الله– من ألصق الناس بأنس –رضي الله عنه وأرضاه– وأحبهم إلى قلبه وكان كثير الصلاة كان ثابتاً لا يترك الصلاة والمراد النافلة حتى إنه ربما يمر في طريقه على المسجد فلا يمر بمسجد حتى يصلي فيه، كل ذلك من حرصه رحمه الله برحمته الواسعة على حب الصلاة والكثرة منها ولذلك قال ﷺ في الحديث القدسي يقول الله تعالى : ((ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته

كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ورجله التي يمشي عليها ويده التي يبطش بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه)) قال بعض العلماء : والله ما من نعمة أعظم من أن يرضى الله عن عبده الرضا الكامل حتى إذا سأله أعطاه وإذا استعاذ به أعاذه، هذا من أسعد العباد وهذا يدل على فضيلة الإكثار من النوافل فرآه وهو يصلي على دابته وعلى حماره .

وقوله رحمه الله : **[ووجهه من ذا الجانب]** أي: أن وجه أنس –رضي الله عنه– وقبلته كانت إلى غير الكعبة، وفيه دليل كما يقول بعض الشراح على تنزيل الإشارة منزلة العبارة، وتوضيح ذلك : أنه نزل الإخبار بالفعل منزلة الإخبار بالقول وهي مسألة تترتب عليها أحكام شرعية ومن ذلك : أنه إذا طلق الأخرس بالإشارة نفذ عليه طلاقه، فإذا كان الرجل لا يتكلم وسأله القاضي وقال له : هل طلقت امرأتك ؟ فأشار بهز رأسه أن نعم طلقت عليه فإن امرأته طالق، ويكون إقراره بالرأس بمثابة قوله : طلقت امرأتي، وكذلك أيضاً إذا أشار بعدد أو أشار بأشياء يُفهم منها مراده فإنها تنزل منزلة كلامه، ولذلك صححوا بيع الأخرص وشراءه إذا فهمت عبارته، وقد أشار النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى الصحابة في الصلاة فثبت عنه في الحديث الصحيح: أنه صلى بالناس إحدى الصلوات الرباعية فلما كانت جلسة التشهد الأول قام عليه الصلاة والسلام – وفي بعض الروايات: المغرب – فلما قام عليه الصلاة والسلام سبح له الصحابة؛ لأن المفروض أن يجلس للتشهد قال رضي الله عنه : "فأشار إلينا من وراء ظهره: أن قوموا" فهذا يدل على أن الإشارة تنزل منزلة العبارة وأنه تُبنى عليها الأحكام عبادة ومعاملة، ومن هنا صححوا بيع المعاطاة فبيع المعاطاة أن يأتي الإنسان إلى رجل وعنده سلعة مكتوب عليها عشرة فيرمي له العشرة فيرمي الآخر له السلعة فيكون هذا الفعل منزلاً منزلة القول كقولهما: بعت، واشتريت فنُزِّل الفعل من الأخذ والعطاء منزلة التصريح بالقول .

قوله رضي الله عنه : **[ووجهه من ذا الجانب]** يقول الحافظ ابن الملقن : فيه دليل على تنزيل الإشارة منزلة العبارة.

وقوله : **[على حمارٍ]** فيه دليل على مسائل :

المسألة الأولى : مشروعية الصلاة على الدابة في السفر، وقد تقدم بيان هذه المسألة وتفصيل كلام العلماء وخلافهم فيما اختلفوا فيه منها .

المسألة الثانية : أنه تجوز الصلاة على الحمار وقد اختلف العلماء –رحمهم الله– في الصلاة عليه، ووجهه: أن جمعاً من العلماء يرون أن الدابة إذا كانت محرمة الأكل فإن عرقها وفضلتها تكون في حكمها ويحكم بنجاستها فيجعلون الفضلات تابعة للحوم فإن كانت اللحوم محرمة فكذلك الفضلات؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– لما طبخ الناس لحوم الحمر الأهلية كما في الصحيح في يوم خيبر نادى مناديه عليه الصلاة والسلام : "إن الله ورسوله ينهيانكم عنها" فأكفئت القدور . وفي رواية : ((إنها رجس)) فلما نزل التحريم بتحريم لحم الحمر

قال عليه الصلاة والسلام : ((إنها رجس)) فأخذ بعض العلماء من هذا دليلاً على أنه إذا كان الشيء محرم الأكل من الحيوانات أنه يعتبر سؤره وفضلته نجسة؛ لأن لحمه نجس ولذلك يعتبرون الفضلات تابعة للحوم، وقال جمع من العلماء : إن عرق الحمار لا يعتبر نجساً وهكذا لعابه ولا يحكم بالنجاسة إلا لبعره وما يكون منه من الروث؛ لأن النبي –ﷺ– لما أتي بالبعرة قال : ((إنها ركس)) والركس هو لغة أهل اليمن أنهم يبدلون الجيم كافاً وأصلها رجس والرجس في لغة العرب هو النجس، وأجاب العلماء الذين يقولون بأنه يعتبر عرقه نجساً بأنه يصلي على البردعة، وهناك حائل بين أنس وبين عرق الحمار وما يكون منه وإن كان الصحيح أنه طاهر ويجوز أن يصلى على الحمار ويكون الحكم خاصاً بالسفر على التفصيل الذي ذكرناه في مسألة الصلاة على الدابة في السفر .

قال رحمه الله : **[فقلت: رأيتك تصلي إلى غير القبلة؟]** هذه الجملة من التابعين فيها دليل على مشروعية الاستفهام إذا رأى الإنسان من الأفضل ممن هو أفضل منه وأعلم منه رأى منه أمراً غريباً فينبغي أن لا يستعجل بالإنكار، وإنما يتلطف في معرفة حجته لأن الظن بالعلماء وبأهل السنة ومن كان على علم وبصيرة بالحق الظن به أن لا يقع في الباطل على بصيرة ولذلك يسأله هل عنده عذر أو ليس عنده عذر، ولذلك ثبت في الصحيح عن النبي –ﷺ– أنه صلى بالناس الفجر فرأى رجلاً لم يصل في القوم كما في حديث عمران في الصحيحين قال : ((علي به. فأتي به، فقال : ما منعك أن تصلي في القوم ؟)) فلم يسبه ولم يشتمه ولم يعبه مع أنه ترك الصلاة، لكن الظن بالمسلم وأنه وهو في المسجد لا يقدم على هذا الفعل إلا وعنده شبهة وعنده تأويل فلا بد أن تسمع ما الذي حمله على ذلك .

[.....١٦:٠٨] في التوجيه والكمال أيضاً في الأدب مع أهل الفضل ومع أهل العلم فقال : **[رأيتك تصلي إلى غير القبلة]** ولم يقل له : رأيناك تصلي صلاة باطلة ولم يقل له : خالفت السنة ولم يقل له : لماذا تترك القبلة وإنما قالوا : "رأيناك" حكوا ما رأوا، وهذا يدل على الأدب والفضل لأن الإنسان إذا كان هدفه الحق وهدفه توجيه الناس تلطف معهم وقذف الله في قلبه الرحمة التي بني عليها هذا الدين ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾ وقال ﷺ : ((إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن سعوهم بأخلاقكم)). فكان التابعون –رحمهم الله برحمته الواسعة– يقدرون فضل الصحابة ويعرفون من هم الصحابة وعلموا من هذا الصحابي الذي أمامهم فقالوا : "رأيناك تصلي..." فحكوا له ما رأوا وكأنهم يستغربون ويتعجبون؛ لأن الأصل أن المسلم يتوجه للقبلة. فكان الجواب لطيفاً حكيماً **[فقال ﷺ: لولا أني رأيت رسول الله ﷺ يفعله ما فعلته]** فيه دليل على حرص الصحابة على السنة وأنهم كانوا ملازمين

لهدي رسول الله –ﷺ–، ولذلك استوجبوا الثناء من الله من فوق سبع سماوات، ونزلت الآية في كتاب الله – ﷻ– تشهد برضوان الله عنهم في الدنيا والآخرة ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ فشهد الله أنه رضي عنهم وذلك لما كانوا عليه من حب هذا الدين ولزوم الكتاب والسنة، وهذا يدل على أنه ينبغي على العلماء وعلى أهل الفضل والذين هم قدوة أنهم لا يقدمون على فعل شيء خاصة من أمور الدين ومما يتعلق بالشرع إلا ولهم أثر ولهم سنة، وهكذا تحيا السنة وتموت البدعة إذا حرص أهل العلم على تطبيق السنة وعلى أن لا يفعلوا ولا يقولوا إلا ما كان لهم فيه أصل وهدي، قال بعض السلف –رحمهم الله– يقول لبعض أصحابه يوصيه ونعم الوصية : إن استطعت أن لا تحك رأسك إلا بأثر فافعل . أي إن استطعت أن لا تفعل شيء حتى حك الرأس والشعر أن يكون عندك هدي عن رسول الله –ﷺ– بحيث لو جئت تحك شعر رأسك تسأل كيف كان يحك، إذا كانت ثم السنة، ولذلك كان الصحابة –رضوان الله عليهم– يتقيدون فكأنه يقول لهم هل تتصورون في أمر الدين وهذه الصلاة أن أحدث فيها برأي .

[لولا أني رأيت رسول الله ﷺ يفعله ما فعلته] دليل على الحرص على السنة والتقيد بها، وفيه دليل على مشروعية تزكية الإنسان لنفسه حتى يوثق بعلمه، قالوا : إذا كان الإنسان عنده سنة وعلم وهو بين أناس لا يعرفون قدره فأراد أن يبين ما عنده من العلم حتى تُحفظ عنه السنة ويُنقل عنه العلم فإنه يجوز، ونص العلماء على ذلك في باب القضاء أن من علم من نفسه الأهلية للقضاء والقيام بالحقوق وإيصالها لأهلها أنه قد يجب عليه في بعض الأحيان أن يذهب ويزكي نفسه ويقول إنه يريد القضاء ويطلبه، فهكذا زكى الصحابي نفسه **[لولا أني رأيت رسول الله ﷺ يفعله ما فعلته]** أي: أن أفعالي على هدي وسنة، وفيه تنبيه على أنه ما يكون منه يحرص فيه على هدي رسول الله –ﷺ–، ومنه قول يوسف – عليه السلام– ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ فزكى نفسه بأنه يحفظ وأنه عنده العلم وأن عنده القدرة والتمكن من الشيء للقيام به على وجهه.

فقال رضي الله عنه وأرضاه : **[لولا أني رأيت رسول الله ﷺ يفعله ما فعلته]** فيه دليل على أن أفعال رسول الله –ﷺ– يؤتسى فيه ويقتدى، وفيه تفصيل من جهة أفعال العبادة وأفعال الجبلة فهناك أفعال تعبدية كما هو الحال في مسألتنا في الصلاة فإنها من أمور العبادة، وما فعله رسول الله –ﷺ– في صلاته فهو سنة وهدي لقوله عليه الصلاة والسلام : ((صلوا كما رأيتموني أصلي)) وقد تكون أفعاله صلوات الله وسلامه عليه جبلية خلقية فهذه فيها تفصيل ومن فعل الجبلي قاصداً إحياء السنة وقاصداً التأسي برسول الله –ﷺ– فإنه مأجور

غير مأزور وذلك هو هدي السلف، لقد كان أنس بن مالك –رضي الله عنه وأرضاه– من أشد الناس حباً للسنة، وثبت عنه في الصحيحين أنه قال : "رأيت رسول الله –ﷺ– يتتبع الدباء في القصعة فما زلت أحبها منذ أن رأيت رسول الله –ﷺ– يأكلها". وفي الحديث الصحيح عنه أنه قال : "كان أكثر دعاء النبي –ﷺ–: ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار". فكان أنس إذا دعا بأي دعوة يجعل هذه الدعوة بينها تأسياً برسول الله –ﷺ– فكان من ألزم الناس وأعرفهم بهدي رسول الله –ﷺ–؛ لأن أمه رضي الله عنها وأرضاها ألزمته رسول الله –ﷺ– فهو الذي فاز باللقب ونِعم اللقب خادم رسول الله –ﷺ–.

ولذلك أثر عنه رضي الله عنه وأرضاه أنه لما قدم هذا المقدم وجلس في الكوفة ثم حصل ما حصل بينه وبين الحجاج وأراد الحجاج أن يؤذيه ويهينه كتب أنس –رضي الله عنه– إلى عبدالملك بن مروان في كتابه المشهور والذي فيه قوله : "لقد صحبت رسول الله –ﷺ– عشر سنين، والله لو أن أهل الكتاب رأوا رجلاً صحب موسى بن عمران أو عيسى بن مريم ساعة، لكادوا أن يتخذوه إلهاً، أفلا تحفظون لي مع رسول الله –ﷺ– صحبتي وخدمتي له؟! فغضب له عبدالملك –رحمه الله برحمته الواسعة– وكتب إلى الحجاج يوبخه ويُعَرفه بقدر أنس وأمره أن يذهب إليه في داره وأن يسأله العفو . فنسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يلحقنا بهم غير خزايا ولا مفتونين، وأن يرزقنا التمسك بالسنة عند فساد الأمة، وأن يحيينا عليها وأن يميتنا عليها ويحشرنا في زمرة أهلها – والله تعالى أعلم –.